

من هو الشافعي ؟

بمناسبة سرقة إحدى مخطوطاته من دار الكتب منذ عدة سنوات ، كان قد سألتني أحد الأصدقاء عن الإمام الشافعي : من يكون ؟ وما دوره في الثقافة الإسلامية ؟

وقد دفعني السؤال للعودة إلى بعض المراجع التي تحدثت عنه ، ومنها نعلم أن الشافعي هو أحد أئمة الفقه الإسلامي الأربعة المشهورين : مالك وأبو حنيفة والشافعي وأبو حنبل . وأنه ولد سنة 150 هجرية وتوفي بمصر سنة 204 ، أي أن عمره لم يتجاوز الخامسة والخمسين ، لكنه ملأها بالأعمال العلمية الكبيرة ، واتصل منذ صباه وشبابه بالإمام مالك في المدينة المنورة ، ثم بمحمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة في العراق . وهذا يعني أنه درس الفقه المالكي والفقه الحنفي : الأول يتميز بالاعتماد الأساسي على الأحاديث النبوية ، والثاني يعتمد على القياس العقلي . ومن هذين الاتجاهين استطاع الشافعي أن ينشئ مذهباً ثالثاً ، وسطاً بين الاثنين ، يجمع بين الأخذ بالأحاديث والمجوء إلى القياس العقلي ، وهذا ما جعل مذهبه يتميز بالأصالة وفي نفس الوقت بالمرونة . والدليل على ذلك أنه عندما عاش في بغداد كانت له آراء فقهية ، الملبث أن غيرها أو عدلها عندما جاء إلى مصر ، لكي تتوافق مع بيئتها المختلفة . نسب الشافعي شريف ، فهو يتصل بالرسول ، صلى الله عليه وسلم . وكان يتميز بعقلية مبدعة ، إلى جانب ذاكرة قوية ، لفتت إليه الأنظار منذ كان صبياً . قال عنه الإمام مالك : يا محمد ، اتق الله فسيكون لك شأن . وقال له ابن حنبل الذي جاء بعده : ما رأيت أحداً أفقه في كتاب الله من هذا الفتى . وعندما سأله ابنه : أي رجل كان الشافعي ؟ قال : يا بني ، كان الشافعي كالشمس للنهار ، وكالعافية للناس . فانظر هل لهدذين خلف ؟ وعنهما عوض ؟ .

تعددت رحلات الشافعي بين مكة والمدينة وبغداد والقاهرة . وفي بغداد ارتفعت منزلته عند هارون الرشيد ، وكذلك لدى عالم الأحناف محمد بن الحسن الذي يقال إنه كان خارجاً ذات يوم من داره إلى دار الخلافة ، فلما رأى الشافعي قادماً نزل وقال لغلامه : اذهب فاعتذر (أي إلى الخليفة) فقال له الشافعي : لنا وقت غير هذا . فقال : لا : وأخذ بيده فدخل الدار .

كان الشافعي وسطاً بين (أهل الحديث) الذين يعتمدون عليه اعتماداً كاملاً ، وبين (أهل الرأي والقياس) الذين يقدمونه على ما سواه . لذلك فقد قام مذهبه على الانتصار للسنة النبوية ، وبخاصة عندما تكون صحيحة . وهو صاحب الكلمة المأثورة (إذا صح الحديث فهو مذهبي) أي لا تأخذوا برأيي عندما تجدون حديثاً نبوياً صحيحاً . وهذا يعني أن الرأي لا يظهر إلماً عندما لا يوجد مثل هذا الحديث . ومن هنا قال الفقهاء بعد ذلك (لا اجتهد مع النص) أي عندما يكون هناك نص واضح ومحدد ، فلا مجال لاجتهاد أحد ، ولما لراييه الخاص .. لكن الشافعي تميز بالاعتماد أيضاً على القياس حين تظهر أمامه مشكلة لا يوجد فيها نص ديني مباشر . وهكذا استطاع هذا الإمام أن يجمع بين طرفين لا بد من الجمع بينهما ، وهما النص والعقل . وهو ما سار عليه السلف الصالح من أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، والتابعين .

أما عبقرية الشافعي فقد تمثلت في إنشاء علم جديد تماماً ، هو (علم أصول الفقه) الذي يعتبر بحق هو منطق الشريعة الإسلامية . وبدونه لا يمكن لأي فقيه أن يتصدى للفتوى ، أو يستخرج أحكاماً من القرآن الكريم أو السنة النبوية . وهو العلم الذي يحدد مصادر الشريعة في الأربعة المتألفة ، وبالترتيب التالي : القرآن الكريم ، فالسنة النبوية ، فالإجماع ، ثم القياس . للإمام الشافعي كتابان مهمان : أحدهما بعنوان (الرسالة) وهو الذي يحتوي على علم أصول الفقه ، والثاني كتاب ضخيم طبع في سبعة أجزاء كبيرة في فروع الفقه بعنوان (الأم) أي الجامع للفقه الشافعي . رحم الله الشافعي ، وجازاه خير الجزاء ، لقاء ما قدمه للعلم وأهله حتى اليوم .